الفصل الثالث

الحرية فى التربية البراجماتية

أولاً : الحرية والطبيعة الإنسانية والتربية.

ثانياً : الحرية والديمقراطية والتربية.

ثالثاً : الحرية والمجتمع والتربية.

obeikandl.com

الفصل الثالث

الحرية فى التربية البراجماتية

مقدمة :

كانت المهمة التى حددها " ديوى " لنفسه تتضمن أولاً وقبل كل شئ تجديد الفلسفة، لتصبح أداة من أجل الإصلاح الاجتماعى، ولتتحول كذلك إلى وسيلة فعّالة لتفسير الأحداث التى تقع، ومساعدة الناس على فهم دلالتها واستدلال نتائجها المحتملة، وذلك بدلاً من أن تكون الفلسفة منهجاً محدوداً ومقيداً لحل مشكلات الفلاسفة(١) . ولقد عبر " ديوى " عن هذا بقوله : " ليست الوظيفة الأساسية للفلسفة هى اكتشاف الفارق الذى تحدثه العبارات الجاهزة إذا صدقت، بل الوصول إلى توضيح معناها بوصفها مشروعات للسلوك تستهدف تعديل العالم القائم "(٢).

ومن هذا المنطلق ربط " ديوى " الفلسفة بالتربية، حيث جاء تعريفه للفلسفة بأنها " النظرية العامة للتربية(٣) " وعليه فإن التربية هى التطبيق العملى للفلسفة. ومشكلة الحرية من مشكلات الفلسفة التى تناولها كثير من الفلاسفة فى مجال عقلى، دون أدنى اهتمام بجانب التطبيق العملى. فتم حصرها فى القدرة على الاختيار. أما البراجماتية فقد ربطت بين الجانب النظرى والعملى للحرية، فلا وجود للحرية عندها إذا انحصرت فى مجال الفكر، أو إذا ابتعدت عن واقع الحياة الإنسانية. ولا تتحقق الحرية إذا لم تمارس فى مجالات الحياة المختلفة، وهذه الممارسة تحتاج إلى تدريب، وليست التربية سوى ذلك الميدان الذى يستطيع أن يخلق أفراداً أحراراً حقاً فكراً وعملاً. وعليه فإن تنمية مفهوم الحرية والعمل على ممارستها ممارسة فعلية، عمل من أعمال التربية. فالتربية تقوم على احترام الشخصية الإنسانية ومعاملة الطفل على أنه غاية فى ذاته، وهذا يعنى أن توجه تربيته كى يصبح عقلاً مفكراً ذكياً يستطيع أن يستغله فى ممارسة حريته بشكل فعّال(٤). هذه الحرية هى موضوع مناقشتنا فى هذا الفصل، وذلك من خلال المحاور الثلاثة التالية :

---

(١) دافيد و. مارسيل : فلسفة التقدم، ترجمة خالد المنصورى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، بدون تاريخ، ص ١٤٩.

(٢) المرجع السابق، ص ١٤٩.

(٣) جون ديوى : الديمقراطية والتربية، مرجع سابق، ص ٣٤٠.

(٤) محمد لبيب النجيحى : التربية اصولها الفلسفية والنظرية، مرجع سابق، ص ٤٠١.

obeikandl.com

١- الحرية والطبيعة الإنسانية والتربية.
٢- الحرية والديمقراطية والتربية.
٣- الحرية والمجتمع والتربية.

أولاً : الحرية والطبيعة الإنسانية والتربية

١- أهداف التربية فى إطار الحرية :

لكل عملية تربوية هدف ترمى إلى تحقيقه، وهو ليس غاية نهائية تقف عندها هذه العملية ولكنه محاولة للتنبؤ بما يمكن أن تنتهى إليه المجهودات التربوية الحاضرة، أو ما يجب أن تنتهى إليه. فإذا ما نتج عن ذلك تلك البصيرة التى نصل إليها بالعمل الفكرى الذكى، والتى تصبح وسيلتنا إذا ما توصلنا إليها لتوجيه كل من المدرس والتلميذ نحو هذا الهدف، فانها تساعدنا أولاً على تحديد الوسائل المناسبة لتحقيق هذا الهدف، وتقدم لنا ثانياً تتابع الخطوات الموصلة إلى ذلك. وبذلك تتصف العملية التربوية بالذكاء، إذ أن وجود الهدف معناه القيام بعمل يتجه إلى تحقيق قيمة معينة(١) . وترى البراجماتية أنه لكى تصبح الأهداف صالحة من الناحية التربوية فلابد من أن تتوافر لها مجموعة من الصفات والشروط ، مفادها(٢) :

أ - يجب أن يبنى هدف التربية على الفعاليات الذاتية للتلميذ وحاجاته بما فى ذلك غرائزه الفطرية وعاداته المكتسبة.

ب - ينبغى أن يكون الهدف قابلاً للتحول إلى طريقة للتعاون مع فعاليات أو نشاط المتعلمين، أى ينبغى أن يشعرنا بنوع البيئة اللازمة لتحرير قدرات التلاميذ وتنظيمها. فالأهداف المفروضة من الخارج والثابتة تحمل عليها البراجماتيه وتنقدها لأنها تؤدى إلى عدم إطلاق الحرية لذكاء المعلم، إذ يقتصر على تلقى الأهداف التى تضعها الجهات العليا، بل يندر أن يتحرر المعلم من أوامر المفتش صاحب السلطة، وكتاب وطرق التدريس ومنهج الدراسة المقرر ... الخ.

---

(١) محمد لبيب النجيحى : التربية أصولها الفلسفية والنظرية، مرجع سابق، ص ١٤٥.

(٢) جون ديوى : الديمقراطية والتربية، مرجع سابق، ص ص ١١٢-١١٣.

جـ - ينبغى للمربين أن يحذروا من الأهداف التى يزعم أنها عامة أو نهائية. أى الأهداف المجردة والمنعزلة عن الواقع الحى، وتدعو البراجماتيه إلى الأخذ بالأهداف العامة حقاً، تلك التى توسع وجهة النظر وتجعل الفرد أكثر حرية.

فى ضوء هذه الأسس تنقد البراجماتيه الأهداف التقليدية للتربية، التى أثرت وسيطرت على العملية التعليمية خلال العصور السابقة. وفى ضوئها تفسر الأهداف تفسيراً جديداً يتفق مع فلسفتها العامة وفلسفتها التربوية وتتمشى مع وجهة نظرها التى فى الحرية. وفيما يلى نناقش أهداف التربية على ضوء مفهوم الحرية، وهى : النمو الطبيعى، والكفاية الاجتماعية، والأهداف المهنية، والثقافة الشخصية.

١- النمو الطبيعى :

من المفاهيم المستخدمة فى فهم تطور الأفراد، مفهوم النمو، وتُعد التربية غالباً وسيلة لمساعدة الأفراد على النمو، وغالباً ما تقاس قيمة التربية ونجاحها بما يتحقق من نمو. والسؤال الذى يفرض نفسه من البداية : كيف تنظر البراجماتية إلى النمو الطبيعى بوصفة هدفاً ؟ وما دور الحرية فى ذلك ؟.

إن الأجابة على هذين السؤالين هو ما نسعى إلى توضيحه فيما يلى.

تناقش البراجماتية هذا الهدف فى ضوء آراء "روسو" فى التربية الطبيعية. حيث ترى، أن صوت الطبيعة عند "روسو" كان ينادى بتنوع المواهب الفردية وبالحاجة إلى نمو شخصيات الأفراد على اختلافها نمواً حراً. فالتربية المتفقة مع الطبيعة تحقق للتعليم والضبط هدفهما واساليبهما(١) . وتؤكد البراجماتية أن الذى دفع "روسو" إلى هذا الاتجاه هو شعوره بأن النظام الاجتماعى السائد فى ذلك الوقت مملوء بالمفاسد، وأن مرجع هذه المفاسد هى القيود التى فرضها المجتمع على الإنسان، فأفسدته وغيرت من طبيعته السمحة الطيبة، وهذا ما حدا بـ "روسو" إلى اعتبار أول خطوة لتحرر الناس من الاغلال الخارجية، هى تحريرهم من القيود الداخلية الناشئة عن المعتقدات والمثل الزائفة. ويشير إلى أن النمو الطبيعى والسليم للإنسان يكون فى خضوعه للطبيعة، بحيث يكون لها الحرية الكاملة فى التأثير عليه، ومن جانب آخر يجب أن تترك الحرية

---

(١) جون ديوى : الديمقراطية والتربية، مرجع سابق ، ص ٩٤.

الكاملة للطفل لاكتشاف الطبيعة والاستجابة المباشرة لتأثيراتها "(١) . تعلق البراجماتيه على موقف "روسو" الذى يشير إلى أن الطبيعة خيرة والمجتمع يفسدها، بقولها : إن "روسو" وضع الحرية فى التربية وضعاً سلبياً بعزله الفرد عن المجتمع ومفاسده حتى يخلص الطبيعة الإنسانية الخيره من شرورها. فى الوقت الذى يجب أن نوجه اهتمامنا للناحية الإيجابية فى الحرية(٢) .

ومن الجدير بالذكر ان البراجماتية استخلصت بعض المزايا من موقف "روسو" بالرغم من سلبيته الاجتماعية وأكدت أهميتها أهدافاً تربوية متفرعة من الهدف العام (النمو الطبيعى) نجملها فيما يلى(٣) :

١- ان النمو الطبيعى من حيث هو هدف، يوجهنا إلى العناية بأعضاء الجسم ويشعرنا بالحاجة إلى الصحة والنشاط .

٢- ان هدف النمو الطبيعى معناه احترام الحركة البدنية، أو على حد قول "روسو" : " ان الاطفال دائبو الحركة، والحياة الراكدة مضرة " وبالتالى لابد من الاعتراف بالدور الواقعى الذى يلعبه استعمال أعضاء الجسم فى الاستكشاف وتداول الاشياء باليدين وفى الرياضة والالعاب .

٣- وهذا الهدف العام يؤكد لنا الاعتراف بالفروق الفردية بين الأطفال وملاحظة ميولهم من حيث منشؤها واشتدادها وضعفها، وتهيئة البيئة الصالحة لاستمرار نشاط الميول الطيبة لدى الأطفال، وأن لا نحاول أن نفرض على الأطفال مفاهيم الكبار ومعاييرهم، بل ننظر إلى ميول الطفل ورغباته من حيث هو طفل.

وهكذا " فموضوع التربية ليست المعرفة فى حد ذاتها، بل هو هذا التلميذ الذى نعمل على توجيهه وتنمية سلوكه وفق اتجاهات وقيم اجتماعية تحقق له النمو والقدرة على ممارسة الحياة وتنظيم أمورها ومواجهة مشكلاتها بحرية "(٤). وبما أن النمو من خصائص الحياة، والتربية ضرورية لاستمرارها، فالنمو والتربية متلازمان. والتربية غاية فى ذاتها. ومقياس قيمة التربية

---

(١) محمد سيف الدين فهمى : النظرية التربوية وأصولها الفلسفية والنفسية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٢، ص ٩٦.

(٢) فاطمة الجيوشى : فلسفة التربية، المطبعة الجديدة، دمشق، ١٩٨٨، ص ٦٥.

(٣) جون ديوى : الديمقراطية والتربية، مرجع سابق، ص ص ١٢٠-١٢١.

(٤) محمد الهادى عفيفى : فى أصول التربية، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٣٤٠.

المدرسية هو درجة ما تخلقة من الرغبة فى استمرار النمو وما تعده من الوسائل لجعل التلاميذ أكثر حرية(١) . وعليه فإن البراجماتية تؤكد أن التربية عملية تفتح من الداخل وليست عملية بناء من الخارج، ومن هنا ترى أن على التربية أن تقوم على أساس تنمية المواهب الفطرية بدلاً من قمع تلك الميول واحلال عادات تكتسب عن طريق القسر الخارجى(٢) .

يتبين مما سبق أن مفهوم النمو هو غاية التربية عند البراجماتية، فإذا كان النمو حراً تلقائياً نابعاً من داخل الفرد وليس مفروضاً عليه من الخارج فان ذلك أساس من أسس الحرية.

٢- الكفاية الاجتماعية :

المجتمعات غير الديمقراطية فى جوهرها مجتمعات ينقسم فيها الناس إلى قطاعات أفقية متميزة، ومفهوم الديمقراطية ينبع من محاولة تنظيم المجتمع بحيث يصبح مجتمع سواسية متحررين من الامتيازات(٣) . وقد قامت المناداة بالكفاية الاجتماعية هدفاً للتربية لمعارضة فكرة جعل الطبيعة مصدراً للتربية الصالحة، والنظر إلى المجتمع على أنه مصدر التربية السيئة، واتخذت المعارضة شكل مذهب يؤكد أن مهمة التربية هى تزويدنا بالشئ الذى تقصّر الطبيعة فى تزويدنا به. أى تعويد التلميذ الرضوخ لضبط المجتمع، واخضاع قواه الطبيعية لقوانينه. وترى البراجماتية إننا نخطئ إذا ما عنينا من أجل الحصول على الكفاية الاجتماعية باخضاع قوى التلميذ بدلاً من استغلالها، فالكفاية الاجتماعية لاتنال بالتقييد أو القمع السلبى، وإنما تنال بالإستخدام الايجابى لاستعدادات التلميذ فى أعمال اجتماعية المغزى(٤) .

وتنقد البراجماتية الفلسفة الالمانية التى كانت سائدة فى القرن التاسع عشر، إذ حصرت اهتمامها فى خلق المواطن، واغفلت فيه الإنسان، وغابت القيم الفردية، وأصبح معنى الكفاية الاجتماعية خضوع الأفراد لمصالح الدولة العليا فى دفاعها الحربى، وفى ضروب كفاحها فى سبيل السيطرة على التجارة العالمية(٥) . هذه أيضاً فلسفة سلبية فى فهمها الحرية فى التربية، إذ

---

(١) جون ديوى : رسالة فى فلسفة التربية الحديثة، ترجمة احسان أحمد القوصى، مطبعة المعارف، القاهرة، ١٩٢٨، ص ٢٤.

(٢) جون ديوى : الخبرة والتربية، مرجع سابق، ص ٩.

(٣) فيليب هـ. فينكس : التربية والصالح العام، ترجمة السيد محمد العزاوى، دار الجيل للطباعة، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٢٠٣.

(٤) جون ديوى : الديمقراطية والتربية، مرجع سابق، ص ١٢٣.

(٥) المرجع السابق ، ص ٩٧.

openkanal.com

وضعت القيمة العليا فى الخضوع للنظام وتحقيق المصالح الاجتماعية، واغفلت اغفالاً تاماً الاهتمام بالفرد وقدراته وميوله ورغباته. ولكن السؤال الذى يطرح عادة فى هذا المجال : هل تصلح الكفاية الاجتماعية هدفاً لتحقيق الحرية والديمقراطية فى التربية ؟ .

يرى " ديوى " ان الكفاية الاجتماعية هى : " القدرة على الاشتراك فى تبادل الخبرة، أى أنها تشمل كل مايزيد فى قيمة خبرة الفرد بالنسبة للآخرين، وما يعين الفرد على الاكثار من الاشتراك مع غيره فى عمليات الحكم والاختيار. فالمقدرة على انتاج الفن والاستمتاع به، والاستعداد للأخذ بضروب التسلية، والاستفادة من وقت الفراغ على خير وجه، هى عناصر فى المواطنه أعظم خطراً من العناصر التى تتبادر إلى الذهن عادة عند ذكر المواطنة(١) . وبعبارة أخرى ان الكفاية الاجتماعية هى "تهذيب القوى ليتمكن الفرد مختاراً من الاشتراك فى الاعمال العامة بملء حريته وإرادته، وهذا يستحيل بدون ثقافة(٢) .

وبذلك تربط البراجماتيه بين الكفاية الاجتماعية ومعنى الحرية الايجابية، التى تجعل الفرد أكثر صلاحية للحياة فى المجتمع إذ توحد بين معنى الكفاية الاجتماعية ومعنى المواطنة الصالحة. وهى " كل ما يجعل الفرد لطيف المعشر، وكذلك مقدرة الفرد على أن ينقد الأشخاص والخطط نقداً حكيماً، وعلى أن يشترك بصورة فعالة فى سن القوانين والخضوع لها "(٣) . فالكفاية الاجتماعية فى أوسع معانيها ليست سوى التكوين الاجتماعى للعقل بحيث يسعى وراء جعل الخبرات أكثر قابلية للنقل والتبادل، ويحطم الحواجز بين طبقات المجتمع، تلك الحواجز التى تجعل الأفراد ضعاف الاحساس بمصالح غيرهم(٤) . فالتكوين الاجتماعى للعقل يساهم مساهمة فعالة فى ربط الأفراد بالواقع الاجتماعى ومشكلاته.

٣- الأهداف المهنيه للتربية :

تؤكد التربية التى تؤدى إلى النشاط علاقة المتعلم بما يتعلم. فالمعرفة والمهارات يمكن تعلمها عن طريق الاسهام الواقعى من جانب التلميذ فى المشروعات النافعة. ومعنى المفاهيم لا

---

(١) جون ديوى : الديمقراطية والتربية، مرجع سابق، ص ١٢٥.

(٢) جون ديوى : رسالة فى فلسفة التربية الحديثة، مرجع سابق، ص ٣٤.

(٣) جون ديوى : الديمقراطية والتربية، المرجع السابق، ص ١٢٥.

(٤) المرجع السابق ، ص ١٢٥.

ينتقل بالادراك البسيط ، ولكن بوضع المتعلم فى مواقف حيث يحتاج إلى الأفكار لحل مشكلاته(١).

ومن هذا المنطلق فقد أولت البراجماتيه الأهداف المهنيه مكانة هامة فى التربية وعدّتها من الأهداف الرئيسية، وأكدت أن المجتمع الحر يجب أن يهتم بالتربية التى تنمى فى التلميذ القدرة على أن يشق طريقاً فى ميدان الحياة الاقتصادية، وتربط البراجماتية بين المهنة والغاية الاجتماعية، وتؤكد على أن يكون اختيار المهنة أو العمل الذى يزاوله التلميذ قائماً على أساس استعداداته، لأن الحرية تستلزم تنمية الاستعدادات إلى حد يستطيع معه التلميذ أن يختار عمله ويزاوله مزاولة حرة، فليس من مأساة أعظم من اخفاق المرء فى اكتشاف عمله الحقيقى فى الحياة، أو أن ينظر فيجد نفسه وقد جرفه تيار الظروف وساقه مكرهاً أو مضطراً إلى عمل لا يلائم طبيعته(٢) . وتحذر البراجماتيه من الاندفاع الفجائى فى اختيار المهنة، فإذا اكتشف شخص فى نفسه ميلاً فكرياً واجتماعياً نحو الاشياء المتعلقة بالهندسة، وقرر أن يتخذ من الهندسة حرفة له فى الحياة فان أكثر ما يمكن أن يقال فى ذلك هو أن قراره هذا يخطط له بوجه عام المجال الذى سيوجه إليه نموه من بعد، فانه قد يكتشف فى نفسه فيما بعد ان هذا الميل كان مجرد ميل عارض، فينتهى الأمر به إلى ممارسة عمله بطريقة رتيبة غير مبتكرة(٣) . وتهتم البراجماتية بالنظر إلى المهنة فى اطار أوسع من حدود المهنة المتخصصة المحدودة، وتؤكد على ربطها بنمو المجتمع ومطالبه وحاجاته، وتدعو المربين إلى أن يحتاطوا فيجعلوا إعدادهم المهنى للتلاميذ إعداداً يشغل هؤلاء التلاميذ فى اعادة تنظيم اهدافهم واساليبهم على وجه مستمر(٤) .

٤- الثقافة بوصفها هدفاً :

تناقش البراجماتية الثقافة بوصفها هدفاً رابعاً للتربية الحرة الديمقراطية، فتشير إلى أن الهدف من الثقافة لابد أن يتحقق حتى يتحقق هدف التربية الذى هو استمرار أسلوب الحياة وتحسينه، وان مثل هذا الهدف هو الهدف الوحيد الذى يلائم عالماً نامياً، فالنمو هو جوهره

---

(١) فيليب هـ . فينكس : فلسفة التربية، مرجع سابق، ص ٨٤٤.

(٢) جون ديوى : الديمقراطية والتربية، مرجع السابق، ص ٣١٦.

(٣) المرجع السابق، ص ٣١٩.

(٤) المرجع السابق، ص ٣١٩.

وغايته(١) . ولقد سبق أن أشرنا إلى مكان الثقافة فى نمو الطبيعة الإنسانية، أما كيف تعد البراجماتية الثقافة هدفاً للتربية الحرة ؟ هذا ما نسعى إلى توضيحه.

تتساءل البراجماتيه فيما إذا كان ثمة تعارض بين هدف الثقافة وبين النمو الطبيعى، وبينه وبين الكفاية الاجتماعية. ترى انه إذا نظرنا إلى " الطبيعى " بمعنى " الفج غدت الثقافة مناقضة للنمو الطبيعى "(٢). وإذا اعتبرنا الكفاية نطاقاً ضيقاً من الأعمال بدل اعتبارها روح العمل ومعناه، أصبحت الثقافة مناقضة للكفاية. وإذا كان للحرية مغزى أو معنى أمثل فهو : أن الانتاج الاجتماعى يجب أن يطلب من الناس جميعاً، وان الغرض لنمو الاستعدادات الممتازة يجب أن يتاح لهم جميعاً. والفصل فى التربية بين هذين الهدفين فيه قضاء تام على الحرية والديمقراطية(٣). وترى البراجماتية أن النظر إلى الثقافة على انها شئ داخلى "محض"، يبرز أمامنا مشكلة الثنائية [التى تسعى البراجماتية إلى حلها] إذ أن ذلك يجعل من الكفاية هدفاً خارجياً فى مقابل الثقافة، ويحل هذا الاشكال فى ثنايا الخبرة، ففى الخبرة تتحد الكفاية والثقافة، وتسيران معاً هدفين مترادفين لا متضادين. فإذا اعتبرت الثقافة صقلاً داخلياً للعقل فانها تتعارض مع فكرة التكوين الاجتماعى لميول الفرد. إلا أن معنى الكفاية الاجتماعية من حيث هى غرض تربوى يجب أن يكون تهذيب القوى وتنشئتها على الاشتراك فى الأعمال العامة اشتراكاً حراً كاملاً، وهذا الاشتراك مستحيل بغير ثقافة. كما أن من فوائده انماء الثقافة، لأن الإنسان لا يستطيع التعامل مع الآخرين من غير أن يتعلم من هذا التعامل، أى من غير أن يقتبس وجهة نظر تساعده على فهم الاشياء(٤) .

٢- الحرية فى مجال الخبرة :

يحاط مفهوم الخبرة بكثير من الغموض فى أذهان الكثيرين على الرغم من شيوع استخدامه وتأثيره، ولعل البراجماتية أكثر الفلسفات المعاصرة استخداماً لهذا المفهوم. فهى تجعل منه أساس التربية ومعيار الحرية. فالخبرة - من منظور الفلسفة البراجماتية - لا تكتسب، ولا تنتقل من مكان إلى مكان. وهى ليست مرادفة للمعرفة أو المهارات. وإنما الخبرة تعنى موقفاً أو مجالاً له زمان ومكان معينين، يتفاعل فيه الفرد ويعيش مع عناصره المختلفة من أفراد وعلاقات واشياء،

---

(١) وليم كلباتريك : المدنّية المتغّيرة، ترجمة عبد الحميد السيد وآخرين، دار مصر للطباعة، القاهرة، ١٩٥٨، ص ١١٨.

(٢) جون ديوى ، الديمقراطية والتربية، مرجع السابق، ص ١٢٦.

(٣) المرجع السابق ، ص ص ١٢٦-١٢٧.

(٤) المرجع السابق نفسه، ص ص ١٢٨-١٢٩.

وينشأ فيه استجابات وردود أفعال نتيجة ما يحدث من مثيرات خلال عملية التفاعل. فالفرد فى حياته يمر بمواقف مختلفة، يتفاعل فيها، ويؤدى كل موقف إلى موقف آخر، كما يتأثر بما يسبقه من مواقف. وهو إذ ينتقل من موقف إلى آخر، لا ينقل الموقف أو يكتسبه، وإنما يكتسب منه ما يستجيب إليه وما يؤثر فيه فيتعلمه نتيجة ما يحدث فى سلوكه من تغيرات تتمثل فى معارف واتجاهات ومهارات(٣) . وبعبارة مختصرة، ان الارتباط الوثيق بين الفعل وبين معاناة نتائجه والانفعال بها هو ما تطلق عليه البراجماتيه اسم الخبرة(٤) . وعليه فإن الخبرة موقف من المواقف، يعيشه الفرد مع آخرين، فيتأثر به ويؤثر فيه، وهو يتعلم نتائج هذا الموقف، وتصبح هذه النتائج جزءاً من سلوكه سواء كانت معلومات أو مهارات أو اتجاهات. ومن هنا يحدث التغير فى سلوكه، وهو التعبير عن حدوث التعلم. وتقاس الخبرة بما تؤدى إليه من تغير فى السلوك، وبمدى أثرها على الخبرات التالية. فالتغير هو تغير فى أداء الفرد، وقد يكون حسناً أو سيئاً. وقد يزيد هذا الأداء حسناً أو سوءاً فى ضوء الخبرات التالية التى يعيشها الفرد والتى تقرر ما تعلمه. فالخبرة السليمة هى التى تؤدى إلى تحسين السلوك وتنميته فى اتجاهات أفضل نتيجة إدراك أقوى بين ما يقوم به الفرد من نشاط ونتائج هذا النشاط ، ونتيجة ما تعلمه فى الخبرات السابقة من أجل تحسين تفاعلاته فى الخبرات الجديدة وهكذا، فالتلميذ الذى عاش خبرة تعرض فيها لبعض قواعد القراءة السليمة فغّير من أدائه، وظهر هذا التغير الجديد فى المواقف التالية، يعتبر تلميذاً أجاد قواعد القراءة، وقادراً على تغيير عاداته إلى أحسن. أما التلميذ الذى لا يظهر سلوكه وعادته فى القراءة تغيراً إلى أحسن، فإنه لم يتعلم ولم يتقدم، إذ لم تؤثر خبراته الماضية على خبراته اللاحقة(١) . وتؤكد البراجماتيه أنه يجب أن تكون كل خبرة وسيلة لإعادة تنظيم الخبرة التالية وإعادة بنائها، مما يساعد الفرد على النمو الذى يعتبر هدفاً رئيسياً من أهداف التربية(٢) كما مرّ معنا. ولكن قبل أن يجرفنا تيار الخبرة، نسأل : ما الذى تتطلبه البراجماتيه من الخبرة ؟ وماذا تريد لها أن تحققه فى نمو الفرد ؟ وكيف تساعد الخبرة المربية على مزيد من الحرية ومن القدرة على السيطرة التى تواجهنا ؟ وماذا يجب أن تتميز به الخبرة التى تقدمها التربية الحديثة ؟.

الاجابة على هذه الأسئلة هو موضوع مناقشتنا فيما يلى :

---

(١) محمد الهادى عفيفى: فى اصول التربية، مرجع سابق، ص ٢٧٠.

(٢) جون ديوى : التجديد فى الفلسفة، مرجع سابق، ص ١١٨.

(٣) محمد الهادى عفيفى : فى أصول التربية، المرجع السابق، ص ٢٧٢.

(٤) المرجع السابق : ص ص ٢٧٢-٢٧٣.

تحدد البراجماتية ما تقدمه الخبرة التربوية (الخبرة المربية) فى النقاط التالية(١) :

١- أن تعين الفرد على زيادة قدرته التنفيذية فى استغلال موارده واجتياز مصاعبه، أى زيادة كفايته.

٢- أن تجعله اجتماعياً، أى راغباً فى صحبة الآخرين والاتصال بهم اتصالاً مباشراً.

٣- أن تدرب عقله على أسلوب التفكير، أى الاهتمام بضرب من ضروب الأعمال العلمية.

٤- أن تهيئ له التذوق الفنى، أى القابلية لتذوق الفنون الرفيعة أو على الأقل تذوق الآثار الخالدة منها.

٥- أن تنمى فيه الحساسية لحقوق الآخرين ومطالبهم، (الشعور بالواجب) .

ويبدو مما سبق ذكره، أن للخبرة عدة وظائف مترابطة فيما بينها، فهى **فكرية** حيث أنها المجال الذى تنمو فيه المعانى والاتجاهات والمفاهيم، ومن ثم فهى السبيل إلى تنمية التفكير. وهى **خلقية** حيث انها المجال الذى يمارس فيه التلميذ القيم والمبادئ الخلقية فى علاقات اجتماعية. وهى **اقتصادية** حيث أن التربية تهدف إلى تنمية المهارات والمعارف التى تمكن الفرد من أن يكون قوة فى الانتاج والعمل. وهى **سياسية**، حيث أن التربية تهدف أيضاً إلى تنمية صفات المواطنة السليمة الواعية بأهداف المجتمع واتجاهاته وبما يحيطه من تحديات ومشكلات(٢) .

يتبين مما سبق أن الخبرة المربية خبرة محررة، تحرر قدرات الفرد من التخبط العشوائى أو الخضوع للسيطرة الخارجية، وتكسبه القدرة على السيطرة على نفسه وعلى الموضوعات الخارجية، وتعمل على اتساع أفقه الفكرى وعلاقاته الاجتماعية، بمعنى أنها تسمح له بمزيد من النمو وتفسح المجال أمام استمرار هذا النمو، وهذا ما قصدته البراجماتيه عندما جعلت من النمو غاية التربية، واتخذت من الخبرة وسيلة التربية وغايتها، فالتربية للخبرة وعن طريق الخبرة وفى سبيل الخبرة(٣) . وقد أشارت البراجماتيه إلى أن معنى الحرية يكمن فى تميزنا بين نوعين من الخبرة، الخبرة غير المباشرة والخبرة الهادفة، وهذه الأخيرة هى الطريقة الذكية للتفاعل مع مجرى الأحداث. أننا نصبح أحراراً بامتلاكنا لهذه الخبرة الهادفة، أى نصبح أحراراً عندما نتعلم

---

(١) جون ديوى : الديمقراطية والتربية، مرجع سابق، ص ص ٢٥٣-٢٥٤.

(٢) محمد الهادى عفيفى : الاصول الفلسفية للتربية، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٨، ص ١٦٢.

(٣) جون ديوى : الخبرة والتربية، مرجع سابق ، ص ٢٢.

كيف نفكر(١) . وقد أولت البراجماتيه أهمية خاصة لهذا النوع من الخبرات [الخبرات الهادفة] وأكدت على تنميتها لدى التلاميذ فى المدرسة، لكونها تمثل أساساً هاماً من أسس الحرية والديمقراطية. ومن ناحية أخرى، ترى البراجماتيه أن اخضاع العقل لفكرة خاصة، ونظام خارجى معد من قبل، إنما هو إنكار لمثل الحرية والديمقراطية، تلك المثل التى تهدف إلى تكوين الشخصية الخلقية الحرة المستقلة(٢) . ومن ناحية أخرى يتساءل " ديوى " هل نحترم أفكار الطفل الفجّة احتراماً عاطفياً، ونرفض ما فى تجارب الكبار ومعارفهم الناضجة من قيمة رفضاً غير منطقى ؟ وهل نترك للطفل الحرية فى أن يعمل ما يشاء كيفما يشاء ؟ ترى البراجماتيه عموماً أن وضع المشكلة على هذا النحو، يتضمن خطأً فى فهم طبيعة الحرية، وتؤكد أن المقصود بالحرية أولاً وقبل كل شئ الحرية الفكرية(٣) . فأفعالنا تكون حرة ليس لمجرد أنها غير خاضعة لسيطرة الآخرين، وإنما لأنها أصبحت ذكية، وتصبح ذكية عندما تنمو فى بلوغ المعانى والأفكار. وعليه فإن جوهر التفكير هو القدرة على الوصول إلى نتائج تزيد من قدرتنا على التحكم فى الأحداث لصالحنا. ولايمكن أن يكون هناك نمو فى الحرية دون أن يكون هناك نشاط ، ذلك لأن نمو العقل لا يحدث دون نشاط(٤) . وهكذا فإن " معرفتنا التى نحصل عليها نتيجة لخبراتنا الهادفة الذكية ما هى إلا وسيلة لزيادة قدرتنا على العمل والتحكم فيه. وهذه القدرة على العمل والتحكم فيه هى حريتنا، وتزداد الحرية كلما استطعنا ان نستغل خبراتنا ونشاطنا لتكوين توقعات معقولة(٥) .

يتبين مما سبق أن الحرية الفكرية التى تنشدها البراجماتيه لنمو الفكر نمواً طبيعياً لا يمكن الحصول عليها من دون أعطاء الطفل الفرص المناسبة ومن دون أن نسمح من جانبنا بقدر من المرونة لكى يعبر الطفل عن شعوره وأحاسيسه وأخيلته الفجّة. إلا أن هذا لا يعنى أن نترك الطفل لاهوائه ومزاجه من غير ضابط ، وإنما أن نسمح له بالقدر اللازم من الحرية الذى يخلصه من الكبت والذى هو ضرورى لنمو الذكاء نمواً حراً كاملاً. يقول " بروبيكر " : " الإنسان المتمتع بحرية من هذا النوع (الحرية الفكرية) قد يقوده تفكيره إلى زيادة ما عنده من طاقة فى بنائه العقلى(٦) ولما كان هدف التربية الأساسى هو تنمية التفكير واستغلال الذكاء، فمعنى هذا أن

---

(١) محمد لبيب النجيحى : التربية أصولها الفلسفية والنظرية، مرجع سابق ، ص ص ٤٠١-٤٠٢.

(٢) جون ديوى : التربية فى العصر الحديث، ترجمة عبد العزيز عبد الحميد، محمد حسين المخزنجى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٩، ص ٧٠.

(٣) المرجع السابق ، ص ٧٠.

(٤) محمد لبيب النجيحى : التربية أصولها الفلسفية والنظرية، مرجع سابق ، ص ٤٠٢.

(٥) المرجع السابق ، ص ٤٠٢.

(٦) جون س . بروبيكر : الفلسفات الحديثة للتربية، مرجع سابق، ص ١١٩.

التربية تعمل من أجل الحرية الإنسانية. فالتأكيد على نمو الطفل إنما هو تأكيد على تحرير قدراته العقلية من قيودها، واتاحة الفرصة لها للانطلاق حتى تستيطع أن تستخدم بطريقة فعالة امكانيات البيئة التى يعيش فيها. ويصبح المجتمع الحر هو المجتمع الذى يشترك أفراده فى تطويره وتوجيه التغير الاجتماعى الحادث له(١) . ومن أجل ذلك لابد من تزويد الإنسان بالمعرفة، فالإنسان كما يقول "بروبيكر": " لا يستطيع إرادة شئ ما من غير أن تكون لديه معرفة عنه أو دوافع تدعوه إلى أخذ قرار بشأنه "(٢) .

ومن هذا المنطلق يجب أن تهتم التربية بتشجيع فعاليات الأطفال وتفسح المجال لممارسة حرياتهم بحيث لا تكون مناهضة للنظام، بل تسعى لتنمية ضبط ذاتى بين الطلاب، بخلاف المدارس التقليدية التى تقيد حريات الطلاب وتمنع حركاتهم. فمن رأى " ديوى " لايمكن أن نعد عقل الطفل أنه قد تحرر فعلاً إلا إذا تحرر من سيطرة القيود المفروضة، باتخاذ أساس جديد، هو ان يصنع الطفل عقله باشتراكه عملياً فى بناء مشكلاته، والاشتراك فى حلها، ولو أدى ذلك إلى التجربة والخطأ "(٣) . ومن هذا المنطلق بالذات، تنادى البراجماتية بان تصبح المدرسة مكاناً يجد فيه الطفل الفرصة الكافية لما يناسبه من تجارب وخبرات تناسب مستواه. وتشير إلى أن ما نحتاجه فى هذا الصدد ليس ثورة انقلابية فى النظام المدرسى وطرق التعليم، وإنما تنظيم العوامل والعناصر الموجودة فعلاً فى المدرسة. ومن بين الوسائل الموجودة فى المدرسة والتى يمكن استخدامها والاستفادة منها، يذكر " ديوى "، اخراج الطفل إلى الهواء الطلق وتوسيع وتنظيم خبراته بتوجيهه واتصاله بالبيئة التى يعيش فيها، ودراسة الطبيعة كذلك عن طريق الملاحظة الدقيقة للقوى الطبيعية وذلك مثل دراسة النبات والحيوان فى الأماكن المخصصة لها، بدلاً من دراستها أو بحثها فى مناهج ليست بها أية حياة. ويرى " ديوى " أن أهم وظيفة طبيعية للطفل هى أن يعمل ويجرى التجارب، ويرى بنفسه نتائجها ويمكن أن يشبع هذا الميل بان يُسمح للأطفال بتركيب أجهزة بسيطة أو عمل اختبارات بسيطة تؤدى شيئاً فشيئاً إلى تجارب عملية منظمة مع الاهتمام دائماً بان يحدد الطفل النتائج العملية التى يصل إليها، ويضبط العمليات المنطقية التى يزاولها. وبدلاً من أن يخضع عقل الطفل لمادة خارجية معدة مسبقاً، يصبح فعالاً عاملاً ذا سلطان على المادة، وذا أثر فى تكوينها(٤) . ومن هنا يؤكد " كلباتريك " " أنه يجب علينا أن نترك

---

(١) محمد لبيب النجيحى : التربية أصولها الفلسفية والنظرية، مرجع سابق، ص ص ٤٠٢ - ٤٠٣.

(٢) جون س. بروبيكر : الفلسفات الحديثة للتربية، مرجع سابق، ص ١١٩.

(٣) جون ديوى : التربية فى العصر الحديث، مرجع سابق، ص ٧٢.

(٤) المرجع السابق، ص ص ٧٢-٧٤.

لتلاميذنا الحرية فى أن يغيروا (مايرون تغيره) بأنفسهم بطريقة ودرجة لم يتمتع بهما أى جيل من قبل"(١). ويقول : " إن أى مجهود من جانبنا لإلزامهم الطرق التى اخترناها إنما هو بمثابة تقييد لأيديهم بل هو بمثابة تقيد لعقولهم فى وقت أحوج مايكونون فيه إلى ترك عقولهم طليقة(٢) . وبالتالى فإن التربية عندما تقوم بهذه المهمة فانها بذلك ترسى القواعد الأساسية لتكوين الطلاب الفاعلين والمنفعلين وتكوين مجتمع مفتوح يؤمن بالحرية والديمقراطية.

---

(١) وليم كلباتريك : المدنية المتغيّرة، مرجع سابق، ص ٩٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٩٧.

obeikandl.com

ثانياً : الحرية والديمقراطية والتربية

١- الحرية والديمقراطية فى المدرسة :

ليست الديمقراطية عند " البراجماتيه " مجرد شكل للحكومة كما عند " الماركسية " وإنما هى فى أساسها أسلوب فى الحياة المجتمعة والخبرة المشتركة(١) . وعليه فإن للديمقراطية أشكالاً عدة عند البراجماتية، فهى مساواة بين الأفراد فى تهيئة فرص متكافئة لهم دونما أى تمييز بينهم، وهى تكامل اجتماعى، وهى عدالة اجتماعية، وهى حرية فى الاعتقاد والقول والنشر والاجتماع، وهى علاقات إنسانية تتسم بالأخذ والعطاء وتغليب الذكاء البشرى والخبرة فى حل الخلافات والمشكلات(٢) . ويترتب على ذلك تربوياً، أن المدرسة الديمقراطية التى تنادى بها البراجماتية لابد أن يعيش فيها المتعلمون والمعلون والعاملون الآخرون، كلهم زملاء متعاونين لتحقيق هدف مشترك يخدم الأغلبية الساحقة، إن لم يكن يخدم جميع اعضاء المدرسة(٣) . وإذا كانت " البراجماتية " تربط بين الديمقراطية والتربية ربطاً عضوياً، فان المدرسة تعد - فى رأيها - المسؤولة عن صيانة الديمقراطية والحرية. فالمدرسة هى الهيئة الأساسية التى تقوم بتوزيع القيم والأغراض التى تشارك فيها الجماعة. انها ليست الوسيلة الوحيدة، ولكنها الوسيلة الأولى وبواسطتها تزرع القيم التى تقدرها الجماعة، والأغراض التى ترغب فى تحقيقها، وتضعها تحت ملاحظة الفرد واختياره(٤) . ومن ثم فالمدرسة عند البراجماتية تقوم بدور هام بالنسبة للحرية والديمقراطية، وفى تكوين المعرفة والفهم والقدرة على العمل، والمدرسة مسؤولة كذلك عن امداد الفرد والمجتمع بالوسائل المختلفة لصيانة الحرية الإيجابية التى تدعو إليها البراجماتية، فعلى المدرسة أن تعمل على تحرير الفرد من النظرة الضيقة بما تفتح أمامه من آفاق توسع وجهة نظره، وتكسبه بصيرة نافذة، فلا ينساق وراء الأهداف المباشرة، وإنما يربط بين الوسائل والغايات مستغلاً كل ما تعده له المدرسة من امكانيات للبحث والمعرفة(٥).

---

(١) لمزيد من الاطلاع يُنظر إلى الفصل الأول، من الصفحة ٢٦ إلى الصفحة ٢٩ .

(٢) جون ديوى : المدرسة والمجتمع، ترجمة أحمد حسن الرحيم، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، بدون تاريخ، ص ١٩.

(٣) المرجع السابق، ص ١٩.

(4) J. Dewey, Education Today Joseph Ratner (ed) New York. G.D. Putman's Sons. 1940. p. 362.

(٥) جون ديوى : رسالة فى فلسفة التربية الحديثة، مرجع سابق، ص ٣٦.

ولتحقيق ذلك على المدرسة أن تفتح أمام تلاميذها وسائل الاتصال ببيئات ومجتمعات مختلفة حتى تتيح لهم أن يتخلصوا من قيود البيئة الاجتماعية التى ولدوا فيها(١). وتؤكد البراجماتيه ان على المدرسة أن لا تقدم هذه العلاقات بصورة معقدة، وإنما تقوم بتبسيطها حتى يستطيع الطفل أن يتدرج فى نموه، حيث تبدأ مع الطفل من مستوى نموه وخبرته وتأخذ فى اعتبارها دائماً مسؤوليتها عن إيجاد التكامل والاستقرار بين مجالات الحياة المختلفة وبين حياة التلميذ، لأن هذا التكامل لا يتحقق إلا إذا تعود التلميذ على أن يكون علمياً فى تفكيره وموضوعياً فى تناوله للأمور، وناقداً لما يعرض له من شؤون مجتمعه ومشكلاته(٢) . ومن هذا المنطلق تنقد البراجماتيه المدرسة التقليدية التى تدرب الأطفال وتعودهم الطاعة والأمتثال وأداء واجبات مفروضة عليهم، لا لشئ سوى أنها تفرض عليهم فرضاً ويضطرون لاستعراضها وتنفيذها دون اعتبار لما قد تؤدى إليه [وهذا هو حال التعليم فى معظم الدول العربية] وهذه الخصائص، خصائص الطاعة والامتثال وغيرها، لاوجود لها فى أنظمة التعلم الديمقراطية(٣) . وترى البراجماتيه، أن مسؤولية سلوك المجتمع وتصرفه، ومسؤولية حكومته لابد أن ترتكز على كل فرد من أفراد هذا المجتمع، ولهذا السبب ينبغى أن ينال كل إنسان من ألوان التدريب ما يمكنه من مقابلة هذه المسؤولية وتحملها، وذلك بأن نعطيه مجرد آراء وأفكار عن ظروف الشعب واحتياجاته، وأن ننمى فيه تلك الصفات التى تضمن ممارسته لنصيبه العادل فى عمل الحكومة. أما إذا دربنا الأطفال على تلقى الأوامر، وعلى أداء العمل لأنهم أمُروا بأدائه، وإذا فشلنا فى اعطائهم الثقة فى أن يتصرفوا وأن يفكروا لأنفهسم، فأننا نضع أمامهم عقبه كبيرة لا يمكن التغلب عليها من أجل التخلص من عيوب النظام التعليمى، ومن أجل تدعيم الحقائق والمثل الديمقراطية العليا(٤) .

ومن هذا المنطلق تؤكد البراجماتية على أن الاطفال فى المدارس لابد أن يحصلوا على الحرية، حتى يتعلموا معناها، ومدى الفائدة التى يحصلون عليها حين يصبحون الهيئة الحاكمة المسيطرة، كما ينبغى أن يُسمح لهم بتنمية الصفات الايجابية مثل صفات الخلق والابداع والاستقلال، يقول " ديوى " : " إن الديمقراطية التى تستهدف تحقيق تكافؤ الفرص بوصفها المثل

---

(١) جون ديوى : رسالة فى فلسفة التربية الحديثة، مرجع سابق، ص ٣٦.

(٢) جون ديوى وإيفلين ديوى : مدارس المستقبل، ترجمة عبد الفتاح المينـاوى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، بدون تاريخ ، ص ٣٣٣.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٣٤.

(٤) المرجع السابق، ص ٣٣٤.

الأعلى لها، تتطلب نوعاً من التربية والتعليم تكون فيه عملية التعليم وتطبيقاتها الاجتماعية، والافكار وممارستها العملية، والعمل وإدراك المفاهيم، كلها أموراً تمتزج وتتحد منذ بداية سن التعليم ولجميع المتعلمين "(١) . ومن هنا تقرر البراجماتية أن الحرية والديمقراطية فى التربية لكى يتحققا، لابد أن تراعى المدرسة فى نظمها ومناهجها واساليبها فى التدريس النواحى التالية(٢):

١- التوفيق بين أعمال الطفل الاجتماعية وبين أعمال المدرسة.
٢- دراسة الطفل وميوله ورغباته وجعل ذلك أساساً فى التعليم.
٣- اتاحة الفرصة للأطفال أن يجمعوا الحقائق، ويرتبوها ويستنبطوا منها النتائج، ثم يمحصون هذه النتائج ويعرضونها على محك الاختبار حتى تظهر حقيقتها.

٤- ينبغى أن تتاح لكل طفل فرصة يظهر فيها مكنونات نفسه، وبذلك يستطيع المعلم أن يكتشف ما يحتاج إليه كل طفل وأن يجعل منه انساناً متكاملاً(٣) .

٥- أن تعمل المدرسة على تنمية التفكير لدى تلاميذها، لأن القدرة على التفكير هى القدرة على البحث، وهى القدرة على ممارسة الحرية السليمة(٤) . ومن أجل ذلك على المدرسة أن تعمل على تنمية روح البحث وحرية القيام به وجعله حقاً إنسانياً أساسياً، وليس حقاً يختص بالفرد فقط . فحرية البحث والمناقشة والتنظيم، حرية أساسية فى مجتمع يسعى للوصول إلى أنواع التكيف بالطرق السلمية. والمدرسة يجب أن تعمل على أن ينمو الطفل فى حدود هذه التنظيمات والاتجاهات الضرورية لقيام المجتمع الحر(٥) .

٢- التربية الديمقراطية ومبدأ تكافؤ الفرص :

ترتبط الديمقراطية بالتربية ارتباطاً وثيقاً - من منظور الفلسفة البراجماتية - حيث تؤكد أنه لا توجد ديمقراطية دون تربية، وأن أى فصل بين الديمقراطية والتربية، إنما يؤدى إلى فشل الديمقراطية لتصبح مجرد عبارات والفاظ لا معنى لها. ان الديمقراطية كما تراها البراجماتيه طريقة للحياة الاجتماعية والفردية ويمكن التعبير عنها باعتبارها أسلوباً للحياة، بأنها الحاجة إلى

---

(١) جون ديوى ، ايفلين ديوى : مدارس المستقبل، مرجع سابق، ص ٣٣٤.
(٢) جون ديوى : المدرسة والمجتمع، مرجع سابق، ص ص ١٠-١١.
(٣) جون ديوى ، ايفلين ديوى : المرجع السابق، ص ١٨٤.
(٤) محمد لبيب النجيحى : التربية اصولها الفلسفية والنظرية، مرجع سابق، ص ٤٠٢.
(٥) المرجع السابق، ص ص ٤٠٣-٤٠٤.

obeikandi.com

مشاركة كل شخص بالغ فى تكوين القيم التى تحكم حياة الناس مع بعضهم بعضاً(١) . وقد ترتب على ذلك من الناحية التربوية أن قامت التربية البراجماتيه بالمطالبة باعداد الفرد اعداداً صالحاً مناسباً بحيث يكون هو محور العملية التربوية، على أساس أنه فرد، وعلى أساس أنه فرد فى مجتمع ديمقراطى. وتقوم العملية التربوية على هذا الأساس على مقومات هذا الفرد وقدراته واستعداداته، وعلى مقومات المجتمع الديمقراطى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية(٢) .

ومن هذا المنطلق تؤمن التربية البراجماتية بالفروق الفردية. وتحث المدرسين على أن يعرفوا تلاميذهم، فعندما يعرف المدرس ان تلاميذه يختلفون فيما بينهم تتنوع علاقاته بهم، وتتشكل طريقة تدريسه بحيث يستطيع أن يقابل حاجات تلاميذه المتنوعة. ومعنى هذا أيضاً أن يتنوع التعليم ليقابل هذه الفروق الفردية على أساس من التوجيه التعليمى بحيث تتاح الفرصة التعليمية لأحسن مستغل لها، ومستفيد منها. وتؤمن التربية البراجماتية بمبدأ تكافؤ الفرص التعليمية ومعناه أن يستطيع الفرد أن يجد الفرصة التعليمية المناسبة وأن يتعلم إلى أقصى حد تؤهله له استعداداته. وهنا تفرق البراجماتية بين تكافؤ الفرصة والمساواة فيها، إذا ما أدخلنا فى حسابنا مبدأ الفروق الفردية. ويقوم مبدأ تكافؤ الفرصة التعليمية على أساس استغلال الثروة البشرية كماً ونوعاً، فكما تستغل الدولة ثرواتها الطبيعية، يجب عليها ان تستغل ثرواتها البشرية على الرغم من أن استغلال الثروات البشرية تكتنفه الكثير من الصعوبات ويحتاج إلى الكثير من بذل الجهد(٣).

وترى البراجماتية أنه إذا كان الفرد أساس المجتمع الديمقراطى فإن إعداد هذا الفرد من الناحية التعليمية أصبح حقاً للفرد وواجباً على الدولة، ويتكون من هذا الحق وهذا الواجب مبدأ الالزام التعليمى، الذى تأخذ به الآن معظم دول العالم. حيث تسود الآن نظرة مفادها : أن للفرد حقاً فى التعليم بصرف النظر عن مستواه الاقتصادى أو الاجتماعى وبصرف النظر عن دينه أو عقيدته أو لونه أو جنسه (الماركسية تتفق مع هذا الاتجاه) غير أن هناك من يرى أن إتاحة الفرصة التعليمية للفرد دون أن يسبق ذلك مستوى اقتصادى ملائم، يستطيع معه هذا الفرد أن يتحرر من عبودية لقمة العيش ومن قلقه عليها، إنما تجعل من مبدأ تكافؤ الفرصة التعليمية مبدأ لا يستطيع أن يحقق أهدافه الأساسية، إذ سرعان ما ينعكس هذا المستوى الاقتصادى أو عدم

---

(١) لمزيد من الاطلاع يُنظر إلى الفصل الأول الصفحات من ٢٦ إلى ٢٩.

(٢) محمد لبيب النجيحى : الأسس الاجتماعية للتربية، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة ط ٢ ، ١٩٦٢، ص ٣٢٣.

(٣) المرجع السابق، ص ص ٣٢٣-٣٢٤.

توفره على مستوى التلميذ التعليمى، وعلى تفرغه للدراسة. وعلى عدد السنوات التى يقضيها فى التعليم، وعلى استغلاله لقدراته وعلى نفسيته وعقليته بصفة عامة(١) . ومن ناحية أخرى يرى " كلباتريك " أن لكل فرد شخصيته وأنه يجب أن يعامل على هذا الأساس، ثم ان العالم بأنظمته، وموارده ملك للإنسان وهو موجود من أجل نموه ومساعدته من أجل أن يعبر عن وجوده. ولما كان الإنسان لايصبح إنساناً إلا فى مجتمع، كان لابد لهذا لإنسان، أن ينمو وأن يعبر عن وجوده بصورة تسمح للجميع بأن ينمو وأن يعبروا عن وجودهم، ولا تسمح لأى شخص أن ينمو على حساب الآخرين(٢) . ويؤكد " كلباتريك " انه ليس من اليسير علينا أن نتعلم كيف نجعل الديمقراطية أسلوباً ناجحاً. فان النظرية الحديثة ترى أننا لا نتعلم ما لا نمارسه. فإذا أردنا أن نتعلم الديمقراطية تحتم علينا ممارستها، وقد يكون من أسباب استيائنا من الديمقراطية، أننا لم نجربها أبداً تجربة حقيقية ومن الواضح أنه إذا أردنا أن يكون العالم ديمقراطياً كان على الشعب أن يتعلم الديمقراطية، كما يجب أن يقوم بذلك نوع معين من التربية فى مكان ما وبطريقة ما، وأجدى هذه الطرق أن تقوم المدرسة بتدريسها، ومعنى هذا أنه يجب على المدرسة ممارستها(٣) .

---

(١) محمد لبيب النجيحى : الأسس الاجتماعية للتربية، مرجع سابق، ص ص ٣٢٤-٣٢٥.

(٢) وليم كلباتريك : المدنية المتغيرة، مرجع سابق، ص ٢٧.

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٨.

openkandil.com

ثالثاً : الحرية والمجتمع والتربية

١- الحرية ضرورية فى التربية لتقدم الفرد والمجتمع :

عرضنا فى الفصل السابق للفلسفة البراجماتية وتصورها للحرية والمجتمع، وذكرنا أن هذه الفلسفة اهتمت بالجانب الايجابى للحرية أكثر من اهتمامها بالناحية السلبية فيها، بمعنى أنها بحثت ما يستطيع الفرد الحر أن يسهم به فى بناء المجتمع، ولم تبحث كيفية تخلص الفرد من سيطرة المجتمع، وبذلك تكون قد وضعت الفرد فى إطار متكامل يقوم على التعاون بين أفراد المجتمع ويسعى نحو تحقيق الكفاية الاجتماعية. وترى البراجماتية ان السمة العامة لهذا العصر الذى نعيش فيه هى التغير : تغير القيم المادية والعقلية والروحية، وتغير نظام المعيشة والعلاقات بين الناس(١) . وبهذا الصدد يقول " كلباتريك " " قد أصبح التغير فى عصرنا أشد ما يكون وضوحاً، وأوسع ما يكون شمولاً، ومن الواضح أن شبابنا يواجه مستقبلاً مجهولاً، ولا نجرؤ نحن على الادعاء بأن الحلول القديمة سوف تكون كافية بالنسبة لهم، والظاهر أنه قد أصبح لزاماً علينا أن تكون لنا فلسفة لا تقتصر على مجرد الاعتراف الايجابى بحقيقة التغير، وإنما تتضمن التغير عنصراً أساسياً فيها "(٢) . ويؤكد " كلباتريك " أنه إذا كانت ستتغير الاشياء هكذا بسرعة متزايدة فإن مشكلتين ملحتين جداً تظهران على التو، هما : هل يمكن أن يبقى المجتمع مستقراً من خلال هذا التغير المتزايد ؟ وكيف نعد شبابنا لمواجهة مستقبل غير مستقر على هذا النحو ؟.

يرى " كلباتريك " ان هذا التغير يفرض على التربية مطالب جديدة نوجزها فيما يلى(٣) :

١- اعادة بناء النظرية التربوية الاساسية لتشتمل على الاعتراف بالحقيقة الدائمة الخاصة بالتغير السريع المطرد، باعتبارها عنصراً أساسياً حاسماً.

٢- الحاجة إلى تعليم الاطفال كيف يفكرون لأنفسهم، بعبارة أخرى، تعليم التلميذ كيف يتعلم.

٣- اعادة تنظيم غرض المدرسة وطريقتها، فيجب أن يقوم المنهج والطريقة على أساس دينامى بدلاً من قيامها على الأساس القديم (الثابت)، ونظراً لضعف الأثر التربوى للأسرة

---

(١) وليم كلباتريك : المدنية المتغيرة، مرجع سابق، ص ٦.

(٢) المرجع السابق، ص ص ٣٨-٣٩.

(٣) لمزيد من الاطلاع يُنظر :

وليم كلباتريك، المدينة المتغيرة، المرجع السابق، الفصل الثانى (المطالب المفروضة على التربية)، ص ص ٤٩-٧٨.

والجماعة وتمشياً مع الفهم العميق لعملية التعلم، يجب أن تصبح المدرسة مكاناً للحياة، والخبرة الحقيقية وعلى هذا الأساس فقط يمكن لأطفالنا أن يتعلموا ما يحتاجون إليه.

٤- أن تساهم التربية فى حل مشكلة الإنسان العقلية فى الوقت الحاضر، وهى أن تكون أفكاره عن العالم سابقة لاكتشافاته العلمية، ومن هنا يترتب على التربية إعادة النظر فى المنطق وعلم الاخلاق والدين والفلسفة، وإعادة بنائها لكى تتمشى مع الموقف المتغير وإلا فإنها ستفشل فى سد حاجتنا.

٥- ان تعد الفرد الذى يستطيع أن يواجه هذا التغير دون أن يفقد نفسه. والذى يستطيع أن يوجه حياته ويكيفها فى هذا العالم المتغير، بل ويستطيع أن يوجه التغير.

يتبين مما سبق أنه يجب على التربية أن تهتم بمساعدة التلاميذ على اكتساب القدرة على التكيف فى الأوضاع الاجتماعية المختلفة أو المتغيرة، وتوجيه حياتهم بذكاء. والتربية التى تحقق ذلك لابد أن تكون تربية يستمتع فيها التلاميذ بقسط كاف من الحرية، ويمارسون من خلالها حياة اجتماعية فى الجو المدرسى. وما أحوجنا نحن العرب إلى تغيير تربيتنا من أجل أن تساهم فى خلق المواطن الفعّال الذى يستطيع أن يسهم فى ابتكار الوسائل والأدوات التى تحقق استمرار التقدم، والذى يستطيع أن يستخدم ذكاءه فى توضيح الأفكار وبناء القيم الجديدة التى تناسب اتجاهات الحياة الاجتماعية فى عصرنا هذا. ولا تستطيع تربيتنا العربية أن تحقق شيئاً من ذلك، مالم تقم على أساس استخدام منهج العلم، بوصفة منهج الذكاء الاجتماعى الحر الذى يستطيع أن يصل بنا إلى أعلى مستويات الضبط فى المجال الاجتماعى وفى مجال القيم.

٢- حرية المعلم والمتعلم فى التربية البراجماتية :

أ - حرية المتعلم :

ترى البراجماتية أن الحرية مفهوم ذو أهمية فى التحدث عن التربية، وبالنسبة لها فإن الحرية تعنى الحرية المكتسبة، بمعنى القدرة المكتسبة على استخدام الملاحظة والحكم الطيب الجيد، بحيث يكون لنا القدرة على النمو والنشاط فى الاتجاه الذى نرغبه، وأن الحرية الفعلية أو الإيجابية، ليست منحة فوقية، ولكنها مكتسبة. وأنه عندما نصل إلى الحد الذى نصبح فيه مدركين لامكانياتنا وفتح الطريق للنمو والخلق والابتكار، فاننا بذلك نستطيع أن نقول إننا حققنا معنى الحرية(١) . يتضح من ذلك أن البراجماتيه تدعو إلى الابتعاد عن كل شكل من أشكال الاملاء

---

(1) L.H. Richard Freedom and Education : The Philosophy of sunmer hill. Op. cit. pp. 207-208.

الشخصى، أو حتى مجرد الضبط الشخصى، فإذا كانت القيمة التربوية مؤكدة فى الحصول على خبرات، فان مركز الجاذبية ينتقل من العامل الشخصى ويتواجد فى الخبرة النامية التى يشارك فيها كل التلاميذ والمدرسين على السواء. والمدرس طبعاً، هو القائد فى النشاط المشترك لما لديه من نضج ومعرفة أوسع(١) . ولكن السؤال الذى يثار هنا : كيف تستخدم التربية البراجماتيه الحرية بوصفها لازمة وضرورية لمصلحة الطفل ؟ يقول " ديوى " : انه لابد من اعطاء الطفل حرية ليكتشف ما يمكنه وما لايمكنه عمله، ولسوف لا يضيع وقتاً كثيراً فى المستحيلات، بل سوف يعبئ طاقاته كلها ويوجهها صوب الممكنات(٢) . ومن هذه الزاوية تؤكد البراجماتية أن نشاط التلميذ أساسى للعمل المدرسى، والوسيلة التى بها تتحقق ايجابية التلميذ، ولكن هذا لايعنى أن يسير النشاط عشوائياً كيفما اتفق، بل أن يتجه النشاط نحو غاية واضحة. ومن الأهمية بمكان الاشارة إلى أن البراجماتيه لا تقصد أن يمارس التلميذ أنواعاً من النشاط لمجرد التخلص من العمل المدرسى الرتيب وعنائه، وإنما يجب أن يكون النشاط وسيلة التعلم، فيكون جزءاً من منهج المدرسة، فينهمك التلميذ فيه بكليته، وتتضاءل الهوة المصطنعة الفاصلة بين الحياة داخل المدرسة وخارجها، وتتوافر البواعث إلى اهتمام التلميذ بشتى أنواع المواد والعمليات المؤثرة فى تربيته تأثيراً واضحا، وبالتالى تصبح أنشطة التلميذ أعمالاً حية ذات أهداف اجتماعية(٣) . ومن هذا المنطلق تؤكد البراجماتية على اعطاء التلميذ حرية الملاحظة والحكم التى تستخدم فى تحقيق أهداف لها قيمة فى ذاتها. ويرى "ديوى" أنه من الخطأ جعل الحرية مرادفة لحرية الحركة أو الجانب الخارجى أو البدنى للنشاط ، غير أن هذا الجانب الخارجى والبدنى للنشاط لا يمكن فصله عن الجانب الداخلى له، أى عن حرية الفكر والرغبة والغرض، وان القيد الذى كان يفرض على العمل الخارجى عن طريق التنظيمات الثابتة لحجرة الدراسة العادية، بما فيها من صفوف الادراج الثابتة وكتائب التلاميذ الذين لم يكن يسمح لهم بالحركة إلا وفقاً لإشارات معينة ثابتة، هذا القيد كان عائقاً كبيراً للحرية الفكرية والخلقية وكان لابد من الاقلاع عن تلك الطرق التى تكبل التلاميذ إذا أريد أن تتاح الفرصة لنمو الأفراد ليفترفوا من الينابيع الفكرية للحرية التى لا ضمان غيرها للنمو السوى الحقيقى(٤) . وقد أولت البراجماتية اهتماماً كبيرا لحرية الحركة الخارجية بوصفها وسيلة وليست غاية، فبدونها يستحيل على المدرس أن يعرف الأفراد الذين أوكل إليه أمرهم، ذلك أن الطاعة والهدوء المفروضين قسراً يحولان بين التلاميذ وبين التعبير

---

(1) J. Dewey. Edcation Today Op. cit. p. 219-220.

(٢) جون ديوى ,ايفلين ديوى : مدارس المستقبل، مرجع سابق، ص ١٨٥.

(٣) جون ديوى : الديمقراطية والتربية، مرجع سابق، ص ٢٠٣.

(٤) جون ديوى : الخبرة والتربية، مرجع سابق، ص ٥٦.

عن سجاياهم الحقيقية، ويفرضان عليهم طابعاً واحداً مصطنعاً ويفضلان المظهر على المخبر، ويضعان فى المكان الأول من الاعتبار أهمية الاحتفاظ بالمظاهر الخارجية لانتباه التلاميذ وأدبهم وطاعتهم(١) . ويؤكد "ماك كالستر" أهمية حرية الحركة الخارجية، بوصفها وسيلة إلى حرية الحكم والقدرة على تنفيذ الغايات المختارة على أساس التفكير(٢) .استناداً على ماسبق تفرق البراجماتية بين الناحيتين الخارجية والداخلية للحرية، وتشير إلى أن الأولى، تدل على التحرر من الخضوع لرقابة الآخرين وعلى التخلص من العبودية، وهى تعنى، قدرة المرء على أن يعمل من غير أن يتعرض لتعطيل أو تدخل مباشر من غيره(٣) . وتجاهر البراجماتية بأن هذه الحرية ليست سوى شرط ، ولكنه شرط أساسى لا غنى عنه مطلقاً لكل حرية ناجعة، حيث تؤكد أن الحرية الناجعة تتضمن :

(أ) الرقابة الإيجابية على المصادر الضرورية لتحقيق الأغراض، كما تتضمن تلك الوسائل التى تشبع الرغبات وترضيها.

(ب) قوى العقل المدربة، ولاسيما قوتى الابتكار والتفكير اللازمتين لحرية الاختيار ولتفضيل شئ على آخر.

وهذا الأمر الثانى الذ لابد منه للحرية الناجعة يتضمن ضرورة وجود المهارة والتروّى والاختراع التى تحرر الفرد من قيود اعتماده على غيره(٤) . وترى البراجماتية، أن النشاط الذى يمارسه التلميذ يجب أن يكون نابعاً من الميول المباشرة للتلميذ، وخاضعاً للتوجيه والضبط الاجتماعى الذى يشرف عليهما المدرس. فالمشكلة التى تواجه الصغير والفرصة المتاحة له هى اختيار أنواع من العمل منظمة ومستمرة، تقوده إلى نواحى النشاط الضرورية فى حياة البالغين، وتعده لها، كما أن لها مبرراتها الكافية فى تأثيرها الحاضر على تكوين العادات الفكرية(٥) . وعليه فإن جوهر الحرية هو الحاجة للظروف التى ستمكن التلميذ من أن يقوم باسهاماته نحو مصلحة الجماعة، والتى يشترك معها فى انشطتها بدافع من ذاته وليس اجباراً منها له على

---

(١) جون ديوى : الخبرة والتربية، مرجع السابق، ص ٥٧.

(٢) و.ج. ماك كالستر : نشأة الحرية فى التربية، ترجمة أمين مرسى قنديل، مكتبة النهضة المصرية، الجزء الثانى، القاهرة، ١٩٥١، ص ١٤٧.

(٣) المرجع السابق، ص ١٤٧.

(٤) المرجع السابق نفسه، ص ١٤٧.

(5) J. Dewey. How we Think. New York. D.C. Heath and Co. 1955, p. 51.

تصرفاته، وان النشاط هو الشئ الوحيد الذى يؤمن القدرة للتلميذ على خدمة مجتمعه مستقبلاً(١). وهكذا تربط البراجماتية بين الحرية والضبط الاجتماعى فى حياة التلميذ، فإذا كان التعليم وجهاً من وجوه الاعمال الحية المنطوية على التبادل بين التلاميذ، دخل الضبط الاجتماعى على عملية التعلم نفسها. وصفوة القول : يعد النشاط الذى يمارسه التلميذ - من منظور البراجماتية - مجالاً جديداً للقضاء على الثنائية بين الفكر والعمل وبين الحرية والضبط ، فإذا عمل التلميذ بيده يقوده ذلك إلى تكوين القيم العقلية والخلقية ويمارس التلميذ النشاط في حرية تهدف إلى بلوغ السيطرة الذاتية وتحقيق الضبط الاجتماعى، وذلك كله باشراف المدرس وتوجيهه(٢) .

ب - حرية المعلم فى التربية البراجماتية :

الفلسفة البراجماتية تنادى بفكرة المدرسة التى تتركز حول الطفل، أى المدرسة التى تتقرر فيها عملية التعلم ليس فقط بواسطة المدرس والموضوع، ولكن بواسطة الطفل نفسه. ولكن الأسئلة التى تثار هنا : هل يُحرم المعلم من أن يكون له عمل ايجابى رئيسى فى توجيه ضروب نشاط الجماعة التى هو عضو فيها ؟ وهل نحترم حرية الطفل، بينما يحرم المعلم الذى هو أكثر أفراد الجماعة المدرسية نضجاً من حرية التصرف ؟ أليس من الأولى أن يكون للمعلم بالاشتراك مع بقية المعلمين سلطة التوجيه وتهيئة الجو الملائم لنمو الخبرة ؟ ألا تكون مشاركة المعلمين فى وضع النظم التربوية ضرورة لابد منها لإنجاح العملية التربوية ؟ أم نقول مع "روسو" " لاتعط التلميذ أوامر على الاطلاق ، لا تأمره أبداً، بل لا تدعه يظن أنك تريد أن يكون لك سلطان عليه، دع اللجام الذى يتحكم فيه هو قوة الظروف، لا السيطرة والسلطان"(٣). يقول " ديوى " مبيناً رأيه فى هذه الأسئلة : لست أدرى فيم تفيد زيادة نضج المدرس وزيادة معرفته بالعالم والمواد الدراسية والأفراد، إذا لم تمكنه من أن يهيئ الظروف التى تؤدى إلى نشاط جماعى كما تؤدى إلى التنظيم الذى يضبط نزعات الأفراد نتيجة لمساهمتهم جميعاً فى مشروعات جماعية، لا لشئ سواها. وإذا كان نوع الخطط السابقة التى تبنتها التربية التقليدية قد ظل حتى اليوم رتيباً لا يسمح إلا بقليل من التفكير الفردى الحر، وقليل من المساهمة على أساس مالدى كل فرد من خبرة متميزة، فليس معنى هذا أن نرفض كل تنظيم سابق، بل الأمر عكس ذلك، إذ تقع على عاتق المربى مهمة وضع خطة أكثر استنارة، وهذا ما يجعلها أشق إعداداً. فلا مفر له من أن يدرس قدرات أفراد المجموعة الخاصة التى يعالجها وحاجاتهم، وعليه فى الوقت نفسه أن ينظم الظروف

---

(1) L.H. Richard. Freedom and Education : The philosophy of summerhill. Op. cit. p. 209.

(2) J. Dewey. How we think . Op. cit. p. 52.

(٣) جون ديوى ، ايفلين ديوى : مدارس المستقبل، مرجع سابق، ص ص ١٨١-١٨٢.

التى تمده بالمادة الدراسية أو محتويات الخبرة، التى تشبع هذه الحاجات وتنمى تلك القدرات. كما يراعى فى هذه الخطة أن تكون مرنة بحيث تسمح بالحرية المؤدية للتصرف حسب الخبرات الخاصة، كما يجب أن تكون من الثبات بحيث تكفى لتوجيه هذه الخبرة لكى تنمو نمواً مستمراً(١). نستنتج من ذلك أن حرية النشاط التى تنادى بها البراجماتيه لا تعنى غياب المدرس وغياب توجيهه، أو سلب سلطته كموجه للخبرة ومحرر لها، بل على العكس، تؤكد أهمية دور المدرس، فمن غير المعقول أن يستبعد المدرس من عضوية الجماعة. ولما كان هو أكثر أفراد الجماعة نضجاً، وقعت على عاتقه تبعة خاصة إزاء سير التفاعلات والعلاقات داخل الجماعة. وهو لب حياة الجماعة بوصف كونها مجتمعاً. أما الفكرة التى تقول : إن الأطفال أفراد ينبغى أن تحترم حريتهم، بينما يحرم المعلم الذى هو أكثر أفراد الجماعة نضجاً من حرية التصرف، بوصفه فرداً منهم، فهى فكرة بلغت من الخطأ درجة لا تحتاج معها إلى تفنيد. والواقع ان النزعة التى ترمى إلى حرمان المعلم من أن يكون له عمل إيجابى رئيسى فى توجيه ضروب نشاط المجتمع الذى هو عضو فيه، ما هى إلا مثل آخر من أمثلة التحول من النقيض إلى النقيض، فعندما كان التلاميذ يكونون فصلاً بدلاً من جماعة اجتماعية، كان حقاً على المدرس أن يعمل من الخارج، وألا يكون عمله توجيها لعمليات الأخذ والعطاء التى يساهم فيها الجميع. وعندما قامت التربية على أساس الخبرة، واعتبرت الخبرة التربوية عملية اجتماعية تغير الموقف من اساسه. ففى هذه الحال يتخلى المعلم عن مركز الرئيس الخارجى أو الحاكم بأمره، ويصبح هادياً لنشاط الجماعة(٢) . ونتساءل مع البراجماتية، إلى أى حد يشارك أولئك الذين يقومون بالتدريس فعلاً ويشرفون على المدرسة، فى وضع مناهج الدراسة، واختيار الكتب، وابتكار طرائق التدريس، وحفظ النظام المدرسى ؟ قد يقال أن أغلب المدرسين ليست لديهم الكفاءة للاشتراك فى هذه النواحى.

يرد " ديوى " على ذلك بقوله :

أليس هذا هو نوع الحجة التى كانت، ولا تزال تقال فى كل مرافق الحياة ضد تقدم الديمقراطية ؟ ان ما تدل عليه الديمقراطية ليس سوى إعطاء الفرد فرصة للاشتراك فى تقرير مصير عمله وظروفه. وهذا لا يمكن أن يتم بدون حرية كل فرد، وتعاون هذا الفرد وانسجامه مع

---

(١) جون ديوى : الخبرة والتربية، مرجع سابق، ص ٥٣.

(٢) المرجع السابق، ص ص ٥٣-٥٤.

باقى الأفراد. وبهذه الطريقة وهذه الروح تجرى شؤون الحياة وتنتظم انتظاماً خيراً مما لو تركت فى يد أقلية تتحكم فيها وتسيطر عليها مهما كانت هذه الأقلية حكيمة طيبة النية(١) .

ويقرر "ديوى " :

انه كلما أكدنا أن المدرسين الحاليين غير صالحين للاشتراك فى أمور التربية الهامة، وأنهم غير اكفاء لتحمل مسؤولية العمل الانتاجى، وانه ليست لديهم القدرة على الابتكار الذهنى والتكيف، كلما فعلنا هذا، زاد التأكد من عدم كفايتهم للقيام بمهمة أصعب وأدق، هى مهمة تطبيق تلك الطرق، التى يطبقها عليهم غيرهم، اللهم إلا بطريقة آلية عقيمة متقلبة(٢) . وترى البراجماتية أنه يجب عدم السماح للطفل باتباع ميوله الخاصة، فهو لم يصل بعد إلى الحد الذى يمكنه من تميز الأغراض ذات المغزى، ومع أن له رأياً مسموعاً فيما يختص بعملية التعلم إلا أن الرأى الأخير ليس له، فهو يحتاج لإرشاد المربين الذين يستطيعون تقدير اهتماماته بطريقة أكثر واقعية، ذلك لأنهم يملكون ما أسماه " ديوى " الثمار الناضجة للتجارب(٣) . يتضح مما سبق ذكره، ان مهمة المدرسين ليست مجرد تلقى ما يفرض عليهم من مسؤولية لينفذوه، وإنما أن يساهموا مساهمة مستمرة فى بناء المنهج الدراسى، مستخدمين فى ذلك ما فى حياة المتعلمين من أشياء، ويربطون ذلك كله بحاجات المتعلمين انفسهم. وهذا يقتضى أن يعرف المدرس نمو الطفل، وأن يكون موجهاً للطفل الفرد، ومنظماً لنواحى النشاط الجماعى المتجانس. وهذا ما تقرره البراجماتية بقولها : إن أحد مسؤوليات المعلم هو الارشاد والسيطرة على نمو الطفل، فالخبرة النابعة، والتى لابد أن تتوافر فى الكبار كمربين تربويين تضعهم فى مقام تقديم كل خبرة لدى الصغار، وعليه فإن وظيفة المعلمين هى أن يروا إلى أى تجاه تسير هذه الخبرة. كما ينبغى أن يراقبوا أوجه النشاط التى تنتج من ذلك، بالاضافة إلى الميول. فعليهم تفهم الأفراد بوصفهم متعلمين، وان دور المعلم يصبح عديم النفع ان لم يساعد على ترتيب وتهيئة الظروف التى تعمل باعثاً لنشاط الجماعة وتنظيمها، وكذلك سائر البواعث الأخرى(٤) . ويؤكد " بروبيكر " :

---

(١) جون ديوى : التربية فى العصر الحديث، مرجع سابق، ص ٦١.

(٢) المرجع السابق، ص ٦٩.

(3) L.H. Richard : Freedom and Education : The philosophy of summerhill. Op. cit. p. 211.

(4) Ibid. p. 208.

" أن مشكلة المعلم لا تقف عند حدود كيف يتعلم الناشئة المعرفة، وإنما تمتد إلى كيف يجب أن يتعلموها بشكل يستطيعون معه الاطمئنان إلى انها صحيحة وغير مزيفة "(١) . وتتساءل البراجماتية، كيف يستيطع المدرسون أن يؤدوا هذه الرسالة ما لم يكونوا قد تربوا تربية حسنة ؟ بل وكيف يستطيعون ذلك ما لم يكونوا عالمين بقسط وافر من الفنون والعلوم والفلسفات وما لم يكن لديهم هدف اجتماعى واضح ؟ وتجيب :

إن أول ما نحتاجه بوصفنا مربين أن نصبح واعين لنوع العالم الذى نعيش فيه، وأن نرى التعارض بين القوى التى تتنازع على الفوز، وان نقرر بعقولنا، أى هذه القوى كانت من الماضى، وايها يتطلع إلى المستقبل، وتبشر بحياة أفضل واسعد. فالمدرس الذى يعمل عقله فى هذه النقاط سوف لا يجد صعوبة فى أن يكتشف لنفسه الأشياء المتخصصة التى يحتاجها ليضع القرارات التى يصل إليها موضع التنفيذ. وتتطلع البراجماتية إلى مجتمع يكون المدرسون فيه مطمئنين واحراراً حقاً، ويستطيعون التغلب فيه على مشكلات المهنة بعزيمة قوية، ويسوده نوع من التنظيم الذى ينتج الشخصية الحرة الذكية، التى لا تعتمد فقط على القوانين والتنظيمات والأوامر الشكلية، وبذلك يصبح التعليم فناً عالياً(٢) . ويشير " ديوى " إلى أهمية الناحية الاقتصادية فى حياة المعلم ، فكلما كانت حياة المعلم المادية مستقرة، ومستوى دخله الاقتصادى مناسباً، أعانه ذلك على التقدم فى العمل دون ان يشغل نفسه بهذه النواحى ويحصر اهتمامه فيها. ويتساءل " ديوى " ماذا يعمل المدرسون كمواطنين فى سبيل تقدم الديمقراطية والحرية ؟ وفى سبيل تحقيق مجتمع أفضل وبالتالى تربية أفضل ؟ ترى البراجماتية ، أن باستطاعة المدرسين أن يقوموا بدور أكثر تفهماً، وأكثر حماساً فى الصالح الإجتماعى، إذا نظروا بعين الاعتبار إلى نوع التربية التى يمكن أن تنتج من نصرة الديمقراطية. وإذا دخل مجتمع فى التخطيط الاجتماعى الاقتصادى بواسطة المناهج الديمقراطية التعاونية، فان ذلك المجتمع سوف لا يحل مشكلاته فحسب، وإنما سوف يقدم للمدرسين وللمواطنين الآخرين، الأداة الإجتماعية للعمل المبدع. وبذلك تخضع عمليات التغيير للذكاء بصورة أقوى، وتصبح ذات دلالة أقوى بالنسبة للتقدم. فمثل الديمقراطية تتطلب من الناس فى المجتمع أن يفهموا وأن يريدوا له على قدر المستطاع، ذلك التقدم الحادث. فعلى المدرس دائماً أن يتناول الحياة فى نقطة التحول. فما كان وما هو كائن هو المادة الخام التى بواسطتها يتعين على التلاميذ والمدرسين أن يخلقوا ما يجب أن يكون، حيث

---

(١) جون س. بروبيكر : الفلسفات الحديثة للتربية، مرجع سابق، ص ١٣٥.

(2) L.H. Richard. Freedom and Education : The philosophy of summer hill. Op. cit. pp. 209-210.

obeikandl.com

٣- التأكيد على تكوين القيم العقلية والخلقية وحث التلميذ على ممارسة النشاط ، لأن هذا يساعده على كسب الحرية التى تهدف إلى بلوغ السيطرة الذاتية وتحقيق الضبط الاجتماعى.

٤- أما عن حرية المعلم، فهو لا يقف خارج نشاط الجماعة دون أن تكون له مشاركة فعالة فى حياتها، وهذا لا يعنى أيضاً أن يسيطر المدرس بوصفه سلطة أو سيد فى الموقف. فحرية النشاط لا تعنى غياب المدرس وغياب توجيهه، أو سلب سلطته كموجه للخبرة ومحرر لها، بل على العكس تؤكد أهمية دوره، وتتوقف حرية المدرس على مدى وعيه بما يتضمنه الموقف التعليمى من ميزات وعلى مدى فهمه لشخصية الطفل ومعرفته قدرات المتعلمين، وحاجاتهم وخبراتهم السابقة، وعلى مدى وعيه بمطالب المجتمع وامكانيات المدرسة وعلى مدى استغلاله لهذه النواحى جميعاً فى توجيه عملية التربية.

obeikandl.com